

النهايات السردية: الرواية الفلسطينية نموذجًا

Narrative Endings: The Palestinian Novel as a Model

د. دة هيفاء حامد سند العصيمي *

الملخص

تبحث هذه الورقة المعنونة بـ "النهايات السردية: الرواية الفلسطينية نموذجًا" في أهمية النهاية الروائية، وتجاوزها لدورها التقليدي عتبة للخروج من العمل الروائي. كما كشفت عن حالات التأثر بالواقع المركب من أزمنة عنيفة، وتداخلها، وخلقها إيديولوجيا استثنائية، تمّ تكثيفها في النهاية الروائية.

وحاول البحث الوقوف على معاني النهاية السردية الفلسفية؛ وذلك للكشف عن مسببات التشكل الإيديولوجي الخاص، وتحرره من طابع الخنوع والاستسلام، والصراخ والبكائية إلى اجترار طرق تفكير تبدو أكثر منطقية وجدلية تطلبها مرحلة فكرية نضالية جديدة. وقد أسهم المنهج الاجتماعي في كشف طرق تشكل هذه الإيديولوجيا وتمثيلها في النهاية الروائية من خلال الرموز المحيلة على الواقع والمستشرفة للمستقبل.

الكلمات الدالة: الرواية، النهاية، الإيديولوجيا، المنهج الاجتماعي.

Abstract

This work entitled "Narrative Endings: The Palestinian Novel as a Model" examines the importance of the narrative ending and its transgression of its traditional role as a threshold for leaving the work of fiction. It also revealed cases of being affected by the complex reality of violent times, its overlapping, and the creation of a unique ideology, which was condensed in the narrative end.

The research attempted to identify the meanings of the philosophical Narrative End in order to reveal the causes of the special ideological formation. It's liberated from the aspect of submissiveness and surrender to offer more logical and argumentative ways of thinking required by a new intellectual stage of struggle. This social approach has contributed to uncovering the ways in which this ideology is formed and represented in the narrative end through symbols that refer to reality and look to the future.

Keywords: Novel, the End, Ideology, the Social Approach

المقدمة:

ينبني العالم السردى في الرواية وفق عناصر فنية تتضافر جهودها لإبراز الأفكار الإيديولوجية الخاصة بثيمات العمل الرئيسية، تسيير وفق خطة مُحكمة من أول العمل حتى آخره. وما أن نصل إلى نهاية العمل، حتى نبدأ في مراجعة العلامات والطرق التي أوصلتنا إلى هذه النهاية المكثفة لغويًا، وَحَدَثِيًا، ورمزيًا، فأعادتنا عكسيًا إلى تشعبات الحكايا من زوايا مختلفة، وأدخلتنا في سياقاتها الثقافية الاجتماعية السياسية المحيطة بها، بصورة تكشف عن نقاط القلق المركزية في العمل وارتباكاتها.

وللنهاية الروائية دور في عرض التصادم الفكري الإيديولوجي، وتأزمه الكوني- في الروايات الوجودية- الباحثة عن الإنسان بين زُكام الحرب ومَنَافى القهر، وهو تصادم فكري بين الأنا وذاتها، وبينها وبين الآخر المُعادي، ينتج عنه سلسلة من عمليات الإلغاء والتثبيت لعناصر فكرية جديدة تُسهم في خلق إيديولوجيا استثنائية، لها تعاطٍ خاص مع حالة الحرب والتهديد.

مُشكلة الدراسة:

كيف يُمكن للنهاية الروائية أن تتجاوز دورها الفني-عتبة للخروج من العمل-؛ لئلا تكون نقطة اشتباك حرجة مع إيديولوجيا العالم الخارجي ووقائعه ومشكلاته، فلا تكتفي بإعادة خلق إيديولوجيا مُجردة تتفق مع الأزمات السياسية، الثقافية، الاجتماعية المتتالية المُحيطة بالشخصيات فحسب، بل تطرح وعيًا إيديولوجيًا مُركَّبًا من نقائض ومفارقات خلقتها حالة الحرب واللجوء المُزلزلة لكل الثوابت والأعراف، لتنبئ عن تعاطٍ خاص مع الأحداث من الموقع المكاني الفكري الجديد.

أهمية الدراسة:

تُبين الدراسة أهمية النهاية السردية في إعادة صياغة إيديولوجيا المقاومة، وتشكيلها لخطاب مركزي مفتوح، يتخطى التقليدية المُتَشائمة، ويتخذ منها نقطة انطلاق، لها طابع ثوري يحمل تصورًا مُغيّرًا.

أهداف الدراسة:

1. بيان قدرة النهاية الروائية بحكم طبيعتها، وبقائها في ذهن المُتلقي على تكثيف التحول الإيديولوجي، وانطلاق الوعي الثوري المُعاصر للحالة السياسية الراهنة.
2. دراسة أثر التغير الخطابي في النهاية الروائية، وذلك بعد عرض العمل لمختلف الإيديولوجيات، وكشف عوارها، وخطورتها في آن واحد.

الاسئلة:

1. كيف يُمكن للنهاية السردية أن تختزل إيديولوجيا شديدة العمق والتعقيد، وتربطها بخطابات بصرية، طبيعية متنوعة، لتبرهن على قوة منطقتها ونجاحته؟
2. كيف يُمكن للقلق الوجودي أن يتداخل مع الخطابات ويؤثر في تكوينها؟
3. كيف أثر الموضوع/القضية الفلسطينية، في التشكل الإيديولوجي الجديد للنهاية الروائية؟
4. ما دور الآخر في تشكيل إيديولوجيا الأنا؟
5. هل يُمكن اعتبار إيديولوجيا الأنا الفلسطينية الناتجة عن انتهاكات الآخر الإنسانية والمكانية، انفعالية تأثيرية مُرتبطة بردّ الفعل فقط، أم أنها تدخل في التكوين الجديد للأنا فتعيد تركيب علاقتها بنفسها وذاتها وقضيتها بصورة مُغايرة؟

الفرضيات:

- 1.النهاية الروائية لها أهميتها في إعادة هيكلة المفاهيم والرؤى الثورية.
2. تكمن قوة النهاية الروائية في اللغة المتضمنة لثنائيات ضدية متشعبة تُحدد المعنى وتُركز الفكرة.
- 3.للنهاية الروائية القدرة على إعادة بناء المفاهيم عند الشخوص بصورة لافتة.
- 4.النهاية الروائية ليست عتبة تقليدية تنبئ بنهاية العمل، بل يُمكن أن تكون امتدادًا مفتوحًا لتراكمات فكرية تواكب التحولات الاجتماعية السياسية الثقافية.
- 5.للاخر دور في تشكيل إيديولوجيا الأنا، وتحوّل قناعاتها، وتكثّف مُسلماتها.

ولاختبار ماهية النهاية الروائية، ودراسة تحولاتها الإيديولوجية، وانفتاحها على الواقع، اخترت روايتين فلسطينيتين¹؛ اشتركت في طريقة إغلاقها السردية بعيداً عن النهاية التقليدية ذات التصور المتكامل للأحداث الممتدة من بداية يعقدها وسط، ثم نهاية واضحة. وما يجعل تلك النهايات ذات طابع درامي مفتوح مُتداخل مع الواقع وتعقيداته انسجامها مع تعدد مسارات الحكمة فيها، وارتباطها بقوة مع موضوعها المركزي/القضية الفلسطينية، وقدرة مبدعها على تحويل المادة التاريخية تحويلاً فنياً، يخرجها من نمط القول التاريخي إلى نمط القول الفني، بما يستلزمه من تخييل، وبناء للشخوص، وإيغال في حكي ما يعتدل بداخلها من مشاعر وأفكار، ويدفعنا ذلك التركيز

¹. الروايات المُختارة في هذه الورقة هي: خليفة، سحر، ربيع حار، ط1، دار الآداب، عمان، 2004م. ويخلف، يحيى، ماء السماء، ط1، دار الشروق، الأردن، 2008م.

الموضوعي في الروايات المُختارة إلى البحث بصورة أكثر تحديدًا عن سبب اختيار المُبدع لهذه النهاية وتوقفه عن السرد. فهل كان هذا التوقف مقصودًا لذاته؟ أم هو جزء من المعاني الكلية الظاهرة والمضمر؟

الدراسات السابقة:

هناك الكثير من الدراسات التي درست الإيديولوجيا وفصلت في معانيها وأطوار تشكلها مثل كتاب، "مفهوم الإيديولوجيا لعبد الله العروي". وهو كتاب قيم في محتواه كونه يؤرخ لتطور الإيديولوجيا وعلاقتها بالمناهج الفلسفية المُختلفة، إلا أنه لا يعالج قضية التحول الإيديولوجي المرتبط بالقضية الإسلامية الأولى "قضية فلسطين".

وهناك أيضًا دراسات تناولت موضوع النهاية الروائية مثل كتاب "النهايات السردية في روايات غسان كنفاني لأحمد العدوانى"، وقد حاولت الباحثة تتبع النهايات السردية وربطها ببقية عناصر الرواية، وربطها بالبداية والعنوان وفصول الرواية، إضافة إلى عقد مقارنة بين النهايات في رواياته المُختلفة، وهو بذلك يدرس النهاية السردية والإيديولوجيا من زاوية مُختلفة عن هذا البحث الذي يتحدث عن تحول فكري ثقافي لا يرتبط بكاتب مُحدد، وقد اتخذت الدراسة نموذجين فقط للتطبيق؛ وذلك لاستحالة دراسة النتاج الروائي الفلسطيني كله في بحث صغير كهذا.

النهاية السردية: تقديم نظري:

يَعْتَبِر لوري لوتمان البداية النصية، والنهاية، بمثابة حدّين نصيين يقومان بتحديد النصّ من اللانصّ، وذلك أثناء لحظة دخول القارئ في عالم النصّ/البداية، كما في حالة خروجه منه/النهاية². وينبغي ألا تُفهم النهاية على أنها ذروة أو حتى لحظة تنوير فحسب، بل إنها بالإضافة إلى هذا وذاك محور أو بؤرة تتجمع حولها أو فيها مُعظم عناصر العمل الأقصوصي أو الروائي³. والنهاية السردية هي تلك التي تحدث بشكل طبيعي، سواء كان ذلك بصورة ضرورية واضحة، أو بعد أحداث سابقة، ولكن لا يلزم أن يتبعها شيء⁴. وللحدث السردى ارتباط بطبيعة الخاتمة، فالحدث حينما يكتمل نموه الفني نجد أن النهاية قد تحددت بصورة قطعية للقصة، في حين أن الحدث حينما يكون في نصف نموه الفني وقد استوجب إسدال الستار الفني على التجربة يتّرك الكاتب هنا نهاية القصة للقارئ، ولمدى وعيه الفني في إكمال نمو الحدث⁵.

(2) ونهاية الرواية أهم من نهاية الفصل التي هي بدورها أهم من نهاية الفقرة. يُنظر: اشهبون، عبد الملك، البداية والنهاية في الرواية العربية، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م، ص237

* يجب علينا التخلي عن الحسم الدقيق في تحديد البداية والنهاية واستبدال ذلك بصيغة الوضعية الابتدائية مقابل الوضعية النهائية، حيث توفر الوضعية الابتدائية للقارئ كل العناصر التي هو في حاجة إليها من أجل فهم ملاتم للحدث، ومن ثمّ تمكنه من الوصول إلى لذة النصّ على حدّ تعبير رولان بارت. أمّا الوضعية النهائية، فتعرض حالة تلك الشخصيات بعد التحولات التي عرفت مساراتهم الحياتية كما يعرضها السرد، وهذه التحولات تُضفي عادة إلى حلّ للحبكة الروائية التي تعقدت وتأزمت أثناء وسط الرواية وأن لها أن تحل وفق نهاية تغلق مسار تلك الأحداث... يُنظر: المرجع السابق، ص212

(3) بحرأوي، سيد، دراسات في القصة العربية، ط1، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1998م، ص212

(4) More on Narrative Closure, Journal of Literary Semantics, April 2016, p1

(5) يُنظر: السامرائي، سهام، العتبات النصية في رواية الأجيال العربية، ط1، دار غيداء، عمان، 2016م، ص76

ويُمكن أن يشتمل النص الروائي الواحد على نهايات متعددة⁶، أو نهاية خاطئة⁷، أو نهاية ساخرة⁸، أو قد لا يكون للقطعة الخيالية نهاية على الإطلاق⁹، أو قد تعود بنا النهاية إلى بداية العمل في شكل دائري ممتع¹⁰. إن تنوع طرق النهايات السردية وتعدد المصطلحات المُشيرة إليها، يُحتم علينا التعامل مع خطاب "النهاية" لا باعتباره بنية نصية مكتملة الحدود والتخوم، بل مفهومًا إجرائيًا بوساطته يمكن تعيين بعض مستويات اشتغال مؤشرات وعلامات النهاية، سواء على المستوى المادي الملموس أو على المستوى التأويلي الحدسي غير المباشر¹¹. وما يَزِيد من أهمية النهايات السردية، وتشوقنا لبلوغها، وسؤالنا بعد كل حدث مفصلي "ماذا حدث بعد ذلك"، بحسب تعبير E.M. Forster، هو توقعنا لعدد من السيناريوهات المختلفة حتى وصولنا إلى الصيغة الأخيرة أو النهائية للعمل، "فالرواية تملك الشكل والمعاني، لكن الخاتمة حاسمة في تحققهما"¹².

وقد ميّز النقاد هنا بين الإغلاق closure والنهاية endings من حيث الانطباع الذي تتركه في نفس المُتلقي. ففي حين تُشير النهاية ending إلى الصفحات الأخيرة من النص، فإن الإغلاق Closure كما تُوضح Barbara ينقل الإحساس بالاستقرار الثابت أو النهائي. ويُشير مفهوم الإغلاق Closure عند نويل كارول إلى الإحساس النهائي الذي نختّم به قطعة من الموسيقى، أو قصة، أو قصيدة. إنه الانطباع بأن النقطة التي ينتهي بها العمل هي النقطة الصحيحة¹³. وتنتهي النهايات السردية المدروسة إلى النهاية Ending لا الإغلاق Closure، لأنها لا تُعطينا الانطباع بالاستقرار والثبات والاطمئنان بانتهاء الحدث؛ وذلك لارتباط الأحداث بشخصيات انتقلت من نقاط مكانية آمنة/الوطن، إلى اللا مكان/الملجأ، تحمل إيديولوجيا مفتوحة تعمل على محورين: المحور الأول: إيديولوجيا تتمسك بكل ما هو ثابت مُشكل لذاتها وهويتها، وإيديولوجيا تتماهى مع الواقع، وتُعدّل من تشكّلها بحسب تطور الأحداث وتغيير الأوضاع.

(6) أي تحمل نهاية الحدث أكثر من وجه في التحقق.

(7) النهاية الخاطئة هي التي لا تتفق مع مجريات الأحداث الأولى، فتكون بمثابة صدمة للمتلقي، لتصوره نهاية أخرى أكثر ملائمة.

(8) النهاية الساخرة تحمل في طياتها نقدًا مبطّنًا عميقًا، يُحيل إلى وقائع اجتماعية، سياسية، ثقافية، خارجية أكثر إيلاّمًا.

(9) ويُمكن التمييز بين نوعين رئيسيين للنهايات في الرواية: النوع الأول: النهايات المُغلقة، وفيها تكتمل الأحداث، ويتضح مآل الشخصيات، ويتم فيها الإجابة عن جميع الأسئلة، وهذه أقرب إلى رضا القارئ. النوع الثاني: النهايات المفتوحة التي تبقى مُشرعة على احتمالات عدة ويقوى فيها دور القارئ كونه مُشاركًا في تصور النهاية وتحديد احتمالاتها. يُنظر: زيتوني، لطيف، معجم مصطلحات في نقد الرواية، ط 1، مكتبة لبنان، بيروت، 2002، م ص 8

(10) Study of the open structure in oracle night as a metafiction, Journal of Language Teaching and Research, 2012, p 31
Hui Ni, 31

(11) اشهبون، عبد الملك، البداية والنهاية في الرواية العربية، ص 236

(12) Torgovnick, Marianna, Closure in the Novel, Princeton University Press, 2017, p4

(13) Revolutionary Closure in A. S. Byatt's Neo-Victorian Fiction, Armelle parey journals, 2019, p23

الإيديولوجيا والنهاية السردية:

تتفاعل النهايات السردية مع الإيديولوجيا¹⁴ في الروايات المُختارة بصور استثنائية تعكس طابع الشك في القيم الإنسانية بصورة عامة، ومساءلتها، ومواجهتها، والدخول في مكوناتها، ومن ثم خلخلة ثبوتيتها؛ وذلك لطبيعة موضوعها الوجودي الخاص بالإنسان، وحقه في الحياة بصورة طبيعية بعيدة عن الحروب وويلاتها. فهل يُمكن أن تُعطينا النهاية هنا التكتيف الكاشف للواقع بصورة مُجردة؟ أم أنها وسيلة يرصد بها المُبدع وصول الإيديولوجيات المختلفة للحظات تأزم حاسمة وفارقه؟ وهل الإيديولوجيا هي من مكونات العمل الروائي مثل الشخصيات والزمان والمكان واللغة، أم أن هناك روايات لا تحمل أي إيديولوجيا خاصة؟

إن الخطاب الروائي مهما كان مضمونه لا يمكنه أن يبتعد عن الإيديولوجيا؛ نظرًا لاتساع فضاءه النصي، وقربه من الحياة الاجتماعية. فالإيديولوجيا هي نمط علاقات الشخصيات، وهي عاداتهم، وأفكارهم، وأخلاقهم، ومواقفهم تجاه القضايا المطروحة في العمل، ويُمكن اعتبار الإيديولوجيا-في نهايات الروايتين المُختارتين-عنصرًا خفيًا، لكنه فاعل ومؤثر في طريقة ظهور عناصر العمل الأخرى¹⁵.

وقد تراوحت نهاية الروايتين المدروستين بين المباشرة وغير المُباشرة في طرح أفكارها، لتعكس طبيعة التفاعل الخلاق بين الفن/الرواية، والإيديولوجيا، على الرغم من اختلاف طبيعة كلٍ منهما؛ ففي حين يُعنى الفن/الرواية بكل ما هو جمالي خاص بتمثيل تصورات العوالم من حولنا وفتح حُدوده خياليًا، فإن الإيديولوجيا في الغالب تتوقف عن مجارة العالم وتسعى للتمسك بأفكار وتوجهات ثابتة متوقعة على ذاتها تسعى لإثبات موقف خاص، ويُمكن تلخيص صور التفاعل الفني الإيديولوجي فيما يأتي:

1. مساءلة النهاية الروائية للإيديولوجيا المُعادية، وتعقيدها، وكشف طبيعتها المُهيمنة بصور ساخرة.
2. تجاوز النهاية لحدود الإيديولوجيا الضيقة، ومحاولة فتح آفاق جديدة للنظر والفهم، تتجاوز الواقع الفعلي المؤلم.

(14) لا يوجد تعريف دقيق مُختصر مُتفق عليه لمعنى كلمة أيديولوجيا، لعد اقتصرها على علم سياسي أو اجتماعي أو ثقافي... وهي

كلمة مُركبة من كلمة Idea وتعني فكرة و Logos وتعني علم. وقد استخدمت لتعني علم الأفكار. يُنظر: ar.wikipedia.org *قُدّم مُصطلح الإيديولوجيا في بدايته على أنه علم الأفكار، ويُعتبر الفيلسوف الفرنسي أنطوان دسوتا دي تراسي أول من أرسى مصطلح الإيديولوجيا بصيغته المعروفة Ideologie وذلك في كتابه الشهير عناصر الإيديولوجيا. يُنظر: العروي، عبد الله، مفهوم الإيديولوجيا، ط1، المركز الثقافي العربي، 1993م، ص 47

والإيديولوجيا حسب رأي لينين أفسحت المجال لدخول علوم جديدة تفسر معناها مثل الفلسفة والعلوم الطبيعية لأنها "أشكال المعرفة والنظريات التي تنتجها طبقة معينة للتعبير عن مصالحها. وترتبط بمفاهيم الوعي الحقيقي، والوعي الزائف، وأدى هذا إلى نشوء خلاقات كثيرة حول معنى الإيديولوجيا، ومكوناتها، ودورها، وتاريخها، وعلاقتها بالعلم. يُنظر: مختار، علي، إشكالية العلاقة بين الإيديولوجيا والعلوم الاجتماعية، تحرير: أحمد خليفة وآخرون، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، 1984م، ص 131

(15) تتحاور إيديولوجيا الروايتين، محل الدراسة، مع إيديولوجيا المتلقي، بحيث تضعه في مأزق أخلاقي، يُجبره على الدخول في عوالم الشخص، وعيش معاناتها، وتجسد آلامها المُرهقة لإنسانيتها في أبسط تجلياتها.

3. كسر إيديولوجيا الاستسلام والانهازم في النهايات هدفه الدعوة إلى فن ثوري، يُعيد تشكيل إيديولوجيات جديدة يكتب لها الخلود والثبات.

النهاية وإيديولوجيا الانعتاق:

رصدت رواية "ماء السماء" ليحيى يخلف، تفاصيل الخروج من البلاد، والتوجه للشتات. بداية مؤلمة، شددت المتلقي لمتابعة ما عانته الشخصيات التي عذبت حياة اللجوء والتمزق في المخيمات، ومصارعة الموت كل يوم، ومحاولة التغلب على قسوة الغربة، التي قلبت موازين الحياة، وجعلت أعزة أهلها أدلة. لكن النهاية حَمَلَتْ تَقَاوُلًا كَبِيرًا على عكس ما بدأت به، فعلى الرغم من مسحة الحزن والألم الذي تلونت به أجزاء الرواية، وموت العديد من الشخصيات التي طالما حنت للرجوع، يتجدد الأمل؛ فماء السماء وماهر هما من أبناء النكبة، وقادة الثورة القادمة التي ستطلق من المخيمات لترد الوطن المسلوب¹⁶.

أختتمت الرواية بمشهد غيث ينهمر من السماء، بعد حديث طويل بين الشخصيات عن حالهم في أرض الشتات واللجوء، "قال أبو حامد بصوت لا يخلو من شجن: هذا الذي ينزل علينا ليس مطر الغيوم، إنه الغيث، إنه ماء السماء"¹⁷. وعند تقصي معاني المطر في القرآن الكريم نراها تحمل معنى العذاب والأذى، والضيق (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ)¹⁸. أما ماء السماء، فهو الماء الطاهر المرسل رحمةً للناس الذي يتغير به وجه الأرض، (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)¹⁹.

تظهر هنا الإيديولوجيا المتجاهلة لمسببات الألم، ونكبات الدهر في صوت أبو حامد الحزين لترسم لوحة تُبرز ثنائية اسمية طرفاها: الاستسلام المُنكسر/صوت أبو حامد، والتحدي الوائق/ماء السماء، هدفها تهميش إيديولوجيا الوجدع الظاهر، وإدخال مكونات تُعيد بناء إيديولوجيا؛ تُحافظ على الذات من الخضوع المُفضي للضياع. إن هذا التوظيف اللغوي لمفردة ماء السماء، بدلاً من المطر، له ارتباط بإيديولوجيا جديدة تحاول الرواية طرحتها وتفعيل دورها في الصراع الحربي البعيد عن التكافؤ. إن مقابلة القوى الإنسانية الطبيعية/ال فلسطينية، في وجه القوى الآلية/الإسرائيلية، جاءت لترسخ فكرة انتصار القوى الإنسانية الطبيعية/الفكر؛ لأنها هي أصل الحياة، وسرّ تفرّد الإنسان على باقي المخلوقات، وتُبشر باندحار قوى الشر الآلية؛ لافتقادها لأهم عنصر روحي خاص بالإنسان/الإيمان. إيديولوجيا الانعتاق هي جزء من التكوين الهوياتي الجديد للفلسطيني، في هذه اللحظة الزمنية

(16) تناولت في دراستي المعنونة ب (القضية الفلسطينية بين الروايتين العربية والإنجليزية، دراسة مقارنة).

النهاية السردية لهذه الروايتين الفلسطينية على اعتبارها أحد عناصر العمل الفني، وقارنتها بأربع روايات إنجليزية اتخذت من موضوع القضية الفلسطينية مرتكزاً لها. وقد توسعت في هذه الورقة في دراسة النهاية السردية منفردة، وعلاقتها بالإيديولوجيا، ونتائج ذلك على التعامل الجديد مع قضايا الإنسان الوجودية في الحرب.

(17) يخلف، يحيى، ماء السماء، ص 285

(18) سورة الشعراء، آية رقم 173

(19) سورة النحل، آية رقم 65

الخاصة/زمن اللجوء؛ ليقوم بدور المقاومة بشكلها الواعي. فصوت ماء السماء بما يحمله من تباشير وفرح، يُغطي على صوت أبي حامد الحزين في دلالة على التفاعل الكوني مع القوة الإيديولوجية الراسخة وتحويل معانيها²⁰.

النهاية والإيديولوجيا المُعادية:

تغيّرت البداية الهادئة كلياً في رواية "ربيع حار لسحر خليفة" بعد انهيار اتفاقية أوسلو، وزيادة التهديدات بالاجتياح الإسرائيلي للمناطق الفلسطينية، انعكست دموية الأحداث وقسوتها على الشخصيات، فغيرتها، وأكسبتها ميولاً واتجاهات مخالفة لطبيعتها، واتجاهاتها، وتفكيرها. فأحمد الذي يصفه والده في بداية الرواية بأنه "ولد رقيق، ولد حساس، ولد ناعم مثل البنات"²¹ لم يكن له أي دور يذكر في البداية، أصبح يلعب دوراً أساسياً ومهماً، بل تركزت كل الأحداث عليه -في جزء الرواية الثاني- وعلى التغير الذي أصابه، والدور الجديد الذي يلعبه، خرج عن طبيعته وتحول لرجل في بضعة أيام، تائه الخطي يبحث عن دليل.

جاءت النهاية مأساوية عند موت أحمد في سيارة الإسعاف التي عرفه الناس بها، يسعف المصابين وينقل الموتى. أراد إنقاذ الفتاة الأمريكية التي دهستها الجرافة الإسرائيلية عندما وقفت أمامها؛ ل تمنع هدم منزل والده، حملها في سيارة الإسعاف، فرأى السائق في الجرافة يقترب ولا يبدي فهماً أو عطفاً، يمشي فقط. "صاحت ميرا ارجع ارجع"²². "رجع للخلف فرأى الجنود في مواجهته، رأوه يقترب من الحاجز، قاموا بتصويب رشاشاتهم عليه، فانكسر الزجاج وتطاير". صور الأحداث مثل السينما شاشة سريعة، فيلم معطوب، هو يصور من غير صور داخل عقله، اندفع بكامل سرعته نحو العسكر، لم يعد يميز. اختل العقل، ثم تأرجح، الروح تطير كطيارة فصاح الوالد: ابني استشهد! في اليوم التالي سمعنا الخبر قالوا إرهاب..."²³.

نلاحظ تسارع وتيرة الأحداث، وتوتر اللغة، وبراعة وصف الجو الذي لفه إعصار القلق والخوف والصراع، مع الذات ومع الآخر، فكان الانفلات من قبضة المنطق سمة أساسية، أرادت الكاتبة ترسيخها في ذهن القارئ الذي يُعيد بدوره ربط الأحداث ببعضها، فيرى أن كل ما حدث كان سببه انتهاك المحتل لحقوق الإنسان الفلسطيني، وتماديه في ذلك حتى أخرجه عن طبيعته، ثم وصفه "بالإرهابي"، وهي الكلمة الرنانة التي يستخدمها المحتل دائماً لتغطية جرائمه أمام العالم.

إن الرواية الجيدة لا بد أن تحمل عنصر المفاجأة للقارئ، بحيث تصدمه بالنهاية التي آلت إليها الشخصيات، فتتحقق لديه بذلك اللذة العقلية²⁴، والنهاية في ربيع حار لم تكن مفاجئة من حيث دمويتها؛ وذلك لمناسبتها لسياقها

(20) ما ويدل اسم الشخصية أبو حامد على معاني القبول والامتنان، لكن الوضع المُصور في العمل يستدعي الرفض والغضب، وهو ما تعمل إيديولوجيا الانعتاق على تفعيله.

(21) خليفة، سحر، ربيع حار، ص 9

(22) الرواية ذاتها، ص 374

(23) الرواية ذاتها، ص 374

(24) Thomas H. Uzzell, The Technique of the Novel - A Handbook on the Craft of the Long Narrative, Velikovsky Press, 2013, p23

السياسي المتأزم، ولكن اللافت فيها هو الاختزال الإيديولوجي للنهاية في مشهد دموي مُتصاعد درامياً صورته الشخصيات بما تُحيل عليه من رموز لها بُعد إيديولوجي خاص. أحمد/فلسطين، تُتضج الأحداث المتلاحقة سريعاً، يتجاوب معها دون أن يتعمق كثيراً في فهم المتغيرات العنيفة من حوله. ميرا/أمريكا تحاول الوقوف في وجه التغطرس الإسرائيلي لكنها تفشل في ذلك، فكانت صنيعتها/إسرائيل، هي أداة قتلها. لا ينتهي العمل بموت من في سيارة الإسعاف برصاص الجنود، فقد عَجّت القوى الإعلامية المُتحيّزة بنقل الخبر وعزله عن سياقه الإنساني والحضاري والغفري لدفاع رجل/أحمد عن بيته، وحمايته من الهدم، فاختصر السبب في كلمة تستدعي عواطف الغربي وتوجهه إيديولوجياً/إرهاب تصدّت له القوة الإسرائيلية وردعته!

اشتركت النهاية في الروايتين محلّ الدراسة في التمهيد لدورة جديدة من حرب الهويات، ومصارعة الحياة، وسط مفارقات لا يسجها منطق غير منطق الغرابية، وذلك في تجسيدها النهائي لصورة مشهدية حيّة مشحونة بشبكة تواصلية مُعقدة تحتل داخلها المُعطيات الاجتماعية، والنفسية، والسياسية الحرجة موقعا مُتميزاً، وهي صورة ترتكز على تمثيل عدد من الثنائيات المتناقضة: فهي في ماء السماء مُصممة لتعكس حالة الصراع الوجودي، وقدرته على إعادة التوازن الطبيعي للإنسان، ومكانه الخاص. صورة ماء السماء المُنهمر تُقدم لنا مجموعة ثنائيات، يتفرع كل طرف منها إلى ثنائيات جديدة في تطوّر لفظي معنوي غير منقطع: الطهارة/الذنس، الطبيعي/الزائف، الحق/الباطل... ويتداخل هذا الصراع الوجودي مع الإيديولوجيا فيعيد تثبيت مواقع الطهارة، والطبيعي، والحق في الخطاب الجديد الذي سيُزهر وتعلو قامته مع ماء السماء المُبشر.

وتعددت الثنائيات الضدية في ربيع حار عند سحر خليفة، فكانت النهاية تجسيدا لصورة ربيعية مُتعددة الألوان، والأفكار، والتوجهات المُلتهبة بحرارة الموقف واللحظة الفارقة. شكلتها الثنائيات الآتية: الموت/الحياة، الحق/الباطل، الشجاعة/الجبن... لتطرح إيديولوجيا ذات فاعلية في الصراع الفلسطيني ضد القوة الإسرائيلية المُعتمدة على التدليس المُصطلحي، والقوة الإعلامية في شرعنة خطاباتها، ووجاهة اعتداءاتها. فالقوة الإيديولوجية المعوّل عليها فلسطينياً ليست إقداماً أعزل، نهايته موت مُحقق لأمة كاملة/أحمد، ولكن استيعاباً لقوى الآخر الإيديولوجية، وسلامة مواجهتها حربياً، وإعلامياً، وخطابياً.

وقد أسهم الآخر/الإسرائيلي، كما هو واضح في التكوين الداخلي للأنا/الفلسطينية، وانتقل بها من صراع مكاني ظاهر جليّ بالعتاد والنار، إلى صراع داخلي خفي للأفكار والرؤى. وقد أكّدت النهاية الروائية على أن تفاعل الأنا الفلسطينية المُمتد منذ لحظة خروجها، وانتهاك حيزها المكاني الخاص، يتطلب الانتقال بها إلى مرحلة أخرى، يكون فيها هذا الآخر/العدو وسيلة لتفعيل عناصر أكثر قوة في هويتها الوطنية، تتخذ من الذاكرة، الفضاء، المكان، الزمان، الأشكال، الألوان، الخطوط، مكونات مركزية ملموسة تزيد الهوية تجذراً كلما ازداد انتهاك الآخر لحيزها الخاص.

الخاتمة:

خلص البحث إلى النتائج الآتية:

1. للنهاية الروائية القدرة على تقديم إيديولوجيا مُختزلة بصور رمزية تزيد من تكثيف المعاني وتعمقها، فلا يجب التعامل معها بتقليدية مُنقطعة عن سياقاتها المُتصارعة إيديولوجيًا، وثقافيًا، وسياسيًا، واجتماعيًا.
2. تخطت النهاية الروائية دورها التقليدي وأضحت عتبة دخول لعالم إيديولوجي واسع تشتبك فيه الأفكار المُتحررة من مخاوف الماضي وضغوطه.
3. قوة الإيديولوجيا في النهاية السردية جاءت بسبب طبيعة الموضوعات الإنسانية المطروحة، والقضايا الوجودية، المُتعلقة بضحايا الحرب المُعذبين، وتحولاتهم النفسية، والاجتماعية، والفكرية.
4. جاء تحدي الإيديولوجيا المُنهزمة بمثابة دعوة لتوظيف أدوات فكرية جديدة تتعامل مع متغيرات الواقع بفهم سياقاته، والتنبؤ بمساراته.
5. انفتاح النهاية في الروايتين محلّ الدراسة هي دعوة للمتلقي للتجاوب مع إيديولوجيا مفتوحة قابلة للتبلور والتشكل والتكيف الوجودي مع المكان والأشياء والذكريات واللغة.
6. دخول عناصر بيئية في نهاية الروايتين لها ارتباط بالإيديولوجيا المُصورة لالتحام الفلسطيني بأرضه وتجزره، تدعونا إلى إجراء مزيد من الدراسات النقدية البيئية في الروايات الفلسطينية، تكشف عن تفاعلات المكان، وعناصر البيئة، ضمن منظور نقدي إيكولوجي.

المصادر والمراجع:

- اشهبون، عبد الملك، البداية والنهاية في الرواية العربية، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.
- بحرأوي، سيد، دراسات في القصة العربية، ط1، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1998م.
- خليفة، سحر، ربيع حار، ط1، دار الآداب، 2004م.
- زيتوني، لطيف، معجم مصطلحات في نقد الرواية، ط1، مكتبة لبنان، بيروت، 2002.
- السامرائي، سهام، العتبات النصية في رواية الأجيال العربية، ط1، دار غيداء، عمان، 2016م.
- العروي، عبد الله، مفهوم الإيديولوجيا، ط1، المركز الثقافي العربي، 1993
- مختار، علي، إشكالية العلاقة بين الأيديولوجيا والعلوم الاجتماعية، تحرير: أحمد خليفة وآخرون، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، 1984م.
- يخلف، يحيى، ماء السماء، ط1، دار الشروق، الأردن، 2008م.

المراجع الأجنبية:

- More on Narrative Closure, Journal of Literary Semantics, April 2016.
- Revolutionary Closure in A. S. Byatt's Neo-Victorian Fiction, Armelle parey journals, 2019.
- Study of the open structure in oracle night as a metafiction, Journal of Language Teaching and Research, Hui Ni, 2012.,
- Closure in the Novel, Princeton University Press, Torgovnick, Marianna, 2017.,
- More on Narrative Closure, Journal of Literary Semantics, April 2016. Thomas H. Uzzell, The Technique of the Novel - A Handbook on the Craft of the Long Narrative, Velikovsky Press ,2013.